﴿۞إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ٤٧﴾ [فصلت: 47]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مـيـقـاتُ يـوم الـحـسـاب والـجـزاء مـردُّه إلى الله تعالى، لا إلى غيره

بعد أنْ بيَّنت الآيةُ السّابقةُ أنَّ اللّه سيحاسب النّاسَ يوم القيامة على ما عملوا من حسناتٍ وسيِّئاتٍ حسابًا عادلًا، لا يشوبُه شيءٌ من الظُّلم؛ ناسب أن تُجيب هذه الآيةُ عن السُّؤال - الَّذي سأله بعضُهم عن موعد هذا اليوم وتوقيته - ببيان أنَّ اللّه تعالى اختصَّ نفسه بعلم عدَّة أمورٍ لا يحيط بها أحدٌ غيرُه، منها يومُ القيامة الَّذي تُجزى فيه كلُّ نفسٍ بما عملت من خيرٍ أو شرٍّ، من غير ظلمٍ أو افتراءٍ[1]، فاتِّصافُهُ تعالى بالجزاء، وأنَّه حكمٌ عدلٌ ليس بظلّامٍ للعبيد، باعثٌ على أنْ تتشوَّق النُّفوس لمعرفة الوقت الَّذي يقع فيه هذا الجزاء[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُرَدُّ﴾: (ردد) أصلٌ واحِدٌ، وهو رَجْعُ الشَّيءِ، تَقولُ: رَدَدْتُ الشَّيءَ أَرُدُّهُ رَدًّا[3]، والرَّدُّ: صرفُ الشَّيء بذاته، أو بحالةٍ من أحواله، فمِن الرَّدِّ بالذّات قولُهُ تعالى: ﴿وَلَوۡ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنۡهُ﴾ [الأنعام: 28]، ومن الرَّدِّ إلى حالةٍ كان عليها قوله: ﴿يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ﴾ [آل عمران: 149]، ومِن هذا الرَّدُّ إلى اللّه تعالى، نحو قوله: ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّيٓ لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ٣٦﴾ [الكهف: 36][4]، ومعنى (الرَّدِّ) في

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 314، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 211، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 5.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 412.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رد).

(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 59، والراغب، مفردات القرآن: (رد).

الآية: "الإرجاعُ، وهو مستعملٌ لتفويض علم المذكور في الآية إلى الله والتبرُّؤ من أنْ يكون للمسؤول علمٌ به، فكأنَّه جيء بالسُّؤال إلى النَّبيِّ ﷺ، فردَّهُ إلى الله"[1].

2) ﴿ثَمَرَٰتٍ﴾: (ثمر) أصلٌ واحِدٌ، وهو شَيءٌ يَتولَّدُ عَن شَيءٍ مُتَجَمِّعًا، فالثَّمَرُ مَعروفٌ، يُقالُ: ثَمَرَةٌ وثَمَرٌ وثِمارٌ وثُمُرٌ، والشَّجَرُ الثّامِرُ: الَّذي بَلَغَ أوانَ يُثْمِرُ، والمُثمِرُ: الَّذي فيهِ الثَّمَرُ[2]، والثَّمَرُ: اسمٌ لكلِّ ما يتطعَّم من أحمال الشَّجر، واحدته: ثَمَرَة، والجمع: ثِمار وثَمَرات، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: 22]، وقوله: ﴿ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ﴾ [الأنعام: 99][3].

3) ﴿أَكۡمَامِهَا﴾: (كمم) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ على غِشاءٍ وغِطاءٍ، مِن ذَلِكَ الكُمَّةُ، وهيَ: القَلَنْسوةُ، والكُمُّ: كُمُّ القَميصِ، يُقالُ مِنهُ كَمَمتُهُ، أي: جعَلْتُ لَهُ كُمَّيْنِ، والكِمُّ: وِعاءُ الطَّلْعِ وما يُغَطّي ثَمَرَهُ، والجَمْعُ: أكمامٌ، قالَ تَعالَى: ﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا﴾، وقال: ﴿وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ١١﴾ [الرحمن: 11][4]، وأكمام النَّخلة: ما غَطَّى جُمّارَها من السَّعَف واللّيف، وكلُّ ما أخرجَتْهُ النَّخلةُ؛ فهو ذو أكمام[5].

4) ﴿شُرَكَآءِي﴾: (شرك) أصلانِ، أحَدُهُما يَدُلُّ على مُقارَنَةٍ وخِلافِ انفرادٍ، ومنه: الشِّرْكَةُ، وهو أن يَكونَ الشَّيءُ بَينَ اثنَينِ لا يَنفَرِدُ بِهِ أحَدُهُما، يُقالُ: شارَكْتُ فُلانًا في الشَّيءِ؛ إذا صِرْتَ شَريكَهُ، وأشرَكْتُ فُلانًا؛ إذا جَعَلْتَهُ شَريكًا لَكَ، قالَ اللّه جَلَّ ثَناؤُهُ في قِصَّةِ موسَى: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 32][6]، وجمعُ الشَّريكِ شُرَكاءُ، والشُّركاء في الآية: الأصنامُ، وُصِفوا بالشُّركاء لاعتقاد المخاطَبين ذلك[7].

5) ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾: (أذن) أصلانِ أحَدُهُما: العِلْمُ، تَقولُ العَرَبُ: قَد أذِنْتُ بِهَذا الأمْرِ، أي: عَلِمْتُ، وآذَنَني فُلانٌ: أعْلَمَني، والمَصدَرُ الأُذْنُ والإيذانُ، وفَعَلَهُ بِإذْني، أي: بِعِلْمي، ويَجوزُ:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 5/ 25 (بتصرف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثمر).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (ثمر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كم)، والراغب، مفردات القرآن: (كم).
(5) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كمم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرك).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 151.

بِأمْري[1]، والإذنُ في الشَّيء: إعلامٌ بإجازته والرُّخصة فيه، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: 64]، أي: بإرادته وأمره، وقوله: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 166][2]، وقولُه: ﴿ءَاذَنَّٰكَ﴾ معناه: أخْبَرْناكَ وأعْلَمْناكَ[3].

6) ﴿شَهِيدٍ﴾: (شهد) أصلٌ يَدُلُّ على حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلام، مِن ذَلِكَ الشَّهادَةُ، يُقالُ: شَهِدَ يَشهَدُ شَهادَةً[4]، والشَّهيدُ يقال لِلشَّاهِدِ، والمُشاهِدِ للشَّيء، قال تعالى: ﴿مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ۝٢١﴾ [ق: 21]، أي: من شهد له وعليه، وقال: ﴿فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ۝٤١﴾ [النساء: 41][5].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

كُلُّ ما يُقال عن المستقبل مِن باب الحدس والتَّخمين، لا مِن باب العلم واليقين

تُقرِّر الآيةُ أنَّ العلم بجواب السّائلين عن ميقات يوم القيامة وموعده الدَّقيق يرجع إلى الله تعالى وحدَهُ، وليس إلى أحدٍ غيرِه، فلا يمكن لأحد معرفةُ ذلك اليوم، ولا يستطيع بشرٌ - مهما كان - التَّنبُّؤَ بموعدِه؛ لأنَّ الله تعالى اختصَّ نفسَه بعلمه، واختصَّ نفسَه كذلك بعلم ما يقع في المستقبل مِن أحداثٍ، كموعد خروج الثِّمار من أكمامها؛ لأنَّه الخالق لها، وكذلك نوع ما تحمل كلُّ أنثى، أذكرٌ هو أم أنثى؟ أناقصٌ أم كامل؟ وموعد وضعها وولادتها، فمهما ارتقى العلمُ؛ فهو لا يستطيع الجزم بالمواقيت الدقيقة لتلك الأمور، وكلُّ ما يقولُهُ بعضُ النّاس عن المستقبل؛ فهو من باب الحدس والتَّخمين، لا من باب العلم واليقين[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(2) الراغب، مفردات القرآن: (أذن).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 7.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(5) الراغب، مفردات القرآن: (شهد).
(6) حجازي، التفسير الواضح: 3/ 350.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الآية عمّا قبلها:

جاءت جملة: ﴿*إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ مفصولةً عمّا قبلها؛ لشبه كمال الاتِّصال الَّذي تُجيب فيه الجملةُ المفصولةُ عن سؤال يثيره قولُه تعالى: ﴿مَّنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَنۡ أَسَآءَ فَعَلَيۡهَاۗ﴾ [فصلت: 46] عن موعد ذلك وميقاته، فتأتي الجملة الثانيةُ لتوضِّح أنَّ الموعدَ الدَّقيقَ لساعة الحساب والجزاء مردُّه إلى الله لا إلى أحدٍ سواه، ولتُفصَل عن الأولى كما يُفصل الجوابُ عن السُّؤال[1].

الحديثُ عن الحساب والجزاء يثير التَّساؤل عن ميقاته

سرُّ تقديمِ شبه الجملة: ﴿*إِلَيۡهِ﴾:

(إلى) في قوله تعالى: ﴿*إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ لانتهاء الغاية[2]، وقُدِّم الجارُّ والمجرورُ ﴿*إِلَيۡهِ﴾ على الفعل ومعموله؛ للدَّلالة على اختصاص الله تعالى بعلم وقتِ السّاعة الَّتي يقوم فيها النّاس للحساب والجزاء، وموعدها لا يتعدّاه ذلك إلى أحدٍ غيره، ولو كان رسول الله، وهو قصرٌ إضافيٌّ يفيد القلب، والمعنى: "إلى الله تَعالَى يُفَوَّضُ عِلْمُ السّاعَةِ لا إلَيَّ"[3].

علمُ السّاعةِ مُفوَّضٌ إلى الله تعالى لا إلى الرسول ولا إلى غيره

دلالةُ التَّعبير بالضَّمير بدلًا من الاسم الظاهر:

الضَّميرُ في ﴿*إِلَيۡهِ﴾ يرجع إلى اسم الجلالة المُعبَّر عنه بعنوان الرُّبوبيَّة في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾ [فصلت: 46]، أوثِرَ التَّعبير به جريًا على الأصل في التَّعبير عن الاسم الظاهر الذي سبق ذِكرهُ بالضَّمير، ولما يفيده البيانُ بالضَّمير من استحضار المُتحدَّث عنه وتعيينه تعيينًا يحول دون صرف الحديث عنه إلى غيره، والمعنى: "إلى

اختصاصُ الله تعالى نفسَه بعلم الساعة فيه مصلحةٌ أكيدة تعودُ على خلقِه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 314، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 211، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 5.

(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 412.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 5.

ربِّك المُحسنِ إليك يرجع علم السّاعة لا إلى أحد غيره"[1]، يُزاد على ذلك أنَّ عود الضَّمير على اسم الرَّبِّ الذي يعني: "المتكفِّل بمصالح خَلقِه"[2]، فيه دلالةٌ على أنَّ اختصاص الله تعالى نفسَه بعلم موعد السّاعة وزمانها فيه مصلحةٌ أكيدةٌ تعود عليهم، تتمثَّل في إثارتهم إلى الاستعدادِ الدّائم لها، ومِن ثَمَّ يفوزون فيها، وينجون من أهوالها.

بلاغةُ الرَّدِّ بطريق الأسلوب الحكيم:

الاستعدادُ للساعة أولى بالاعتناء من السؤال عن وقتها

سبق القولُ بأنَّ قوله تعالى: ﴿*إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ يعدُّ ردًّا على سؤال المشركين لرسول الله عن وقت الحساب وزمانه، وقد اتَّبع البيانُ القرآنيُّ في الجواب عن هذا السُّؤال طَريقَ الأُسلوبِ الحَكيم، الَّذي يعني: "تلقّي المخاطَب بغير ما يترقَّب بحمل كلامه على خلاف مرادِه؛ تنبيهًا على أنَّه الأولى بالقصد، أو السّائل بغير ما يتطلَّب بتنزيل سؤالِه منزلةَ غيرِه؛ تنبيهًا على أنَّه الأولى بحاله أو المهم له"[3]، والمعنى: الأَجْدَرُ أن تَعْلَموا ألّا يَعْلَمَ أَحَدٌ مَتَى السّاعَةُ، وأنْ تُؤْمِنوا بِها، وتَسْتَعِدّوا لَها، ومِثْلُهُ قَولُ النَّبيِّ ﷺ عندما سَألَهُ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمينَ: مَتَى السّاعَةُ؟ فقالَ لَهُ: «ماذا أَعْدَدْتَ لَها؟»[4]، أي: استِعْدادُكَ لَها أَوْلَى بِالاعتِناءِ مِنْ أنْ تَسألَ عَن وقْتِها[5].

نكتةُ إيثارِ فعل الرَّدِّ مضارعًا مبنيًّا للمفعول:

كلُّ مَنْ يُسأل عن موعد السّاعة سَيَرُدُّ أمرَها إلى الله تعالى

عبَّر النَّظمُ الكريم عن إرجاع العلم بأمر السّاعة إلى الله تعالى بالفعل ﴿يُرَدُّ﴾ مضارعًا؛ لِما يفيده المضارعُ من الدَّلالة على تجدُّد الرَّدِّ إلى الله؛ كلَّما تجدَّدَ السُّؤالُ، وتكرَّر، وأوثرَ التَّعبيرُ به مبنيًّا لغير الفاعل؛ للدَّلالة على عموم الرَّدِّ وشموله كلَّ مَن يُسأل عن ذلك،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 212، بتصرف.
(2) الراغب، مفردات القرآن: (رب).
(3) القزويني، الإيضاح: 2/ 94.
(4) البخاري، صحيح البخاري، باب مناقب عمر بن الخطاب: حديث رقم: (3485).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 5.

ما يعني: أنَّ كلَّ مجيب - مهما أوتي مِن النُّبوَّة أو العلم - سيردُّ على السُّؤال عن موعد السّاعة بأنَّ العِلمَ بها مردُّهُ إلى الله تعالى[1]؛ لأنَّه لا علم لأحدٍ به غيرُه.

سرُّ إيثار لفظ العِلم معرَّفًا بالإضافة:

عِلمُ اللهِ بالسّاعةِ لا يقتصر على معرفة وقتها، بل يشمل كلَّ ما يحدث فيها

آثر النَّظمُ التَّعبير عن نائب الفاعل بلفظ العِلم دون وقت أو غيره ممّا يهتمُّ الناس بالسُّؤال عنه، فقال: ﴿عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾، دون (وقت السّاعة)؛ للإشارة إلى سَعة علم الله تعالى وإحاطته بكلِّ ما يتَّصل بها[2]، من ميقاتٍ، ومكانٍ، ونَفْخٍ في الصّور، وبعثٍ، وحسابٍ، وجزاءٍ، وجنَّةٍ، ونارٍ، وغير ذلك ممّا ذكره القرآن، وممّا لم يذكرْهُ، ما يعني: أنَّ عِلمَ الله تعالى بها ليس مقصورًا على وقتها، ولكنَّه شامل كلَّ ما يحدث فيها، "فلا يُمكن أن يُسأل أحدٌ سواه عنها، ويخبر بما يغني في تعيين وقتها وكيفيَّتها وصنعتها، وكلَّما انتقل السّائل من مسؤول إلى أعلم منه وجدهُ كالَّذي قبلَهُ، حتى يصلَ الأمرُ إلى الله تعالى ... فاستئثارُه بعلمها دالٌّ على تناهي علمه، وحجْبُه له عن كلِّ مَن دونَهُ دالٌّ على تمام قدرته"[3].

(ما) بين النَّفي والموصوليَّة:

مَردُّ وقتِ خروج الثَّمرات من أكمامِها أيضًا إلى الله، لا إلى أحدٍ غيرِه

(ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ﴾ يمكن أن تكونَ نافية، والمعنى: "لا يعلم أحدٌ في أيِّ وقت من الأوقات الماضية أو الكائنة أو الآتية يَتِمُّ خروج الثَّمرات من أكمامِها، فإنَّ (ما) النّافية لا تدخل إلّا على معناه الحلول"[4]، ويحتمل أن تكونَ موصولةً معطوفة على ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾[5]، والمعنى: أنَّ مردَّ العلمِ بالسّاعة والعلمِ بخروج الثَّمرات من أكمامها إلى الله تعالى، لا إلى أحدٍ غيرِه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 212.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 314.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 212.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213، بتصرف.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 5/ 74.

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿تَخْرُجُ﴾ مضارعًا:

استحضارُ صورة خروج الثَّمرات كأنَّها بادية تتجلّى فيها وجوه الإعجاز بأنواعه

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن بروز الثَّمرات وظهورها بالفعل: ﴿تَخْرُجُ﴾؛ لدلالته - بمعناه وجرسه - على الصُّعوبة الَّتي توضِّحُ بعضَ وجوه الإعجاز الإلهيِّ في هذا الأمر، وأنَّه أمرٌ ليس بالسَّهل أن يَعلمَ النّاسُ زمانَهُ، أو يقدروا عليه، على الرَّغم من إلْفِهم له، وتكرارِ حصولِه أمام أعينِهم، وأوثرَ التَّعبيرُ بفعل الإخراج مضارعًا؛ لما يفيده مِن استحضار الصّورة[1] المُتَحَدَّث عنها - أيًّا كان زمانها - كأنَّها باديةٌ حاضرةٌ، تتجلَّى فيها وجوهُ الإعجاز بشتَّى أنواعه، وللدَّلالة أيضًا على تجدُّد الجهل واستمراره مع تجدُّد خروج الثَّمرات من الأكمام في كلِّ زمان ومكان.

دلالةُ التَّعبير بحرف الجرِّ:

علمُ اللهِ تعالى يستغرق كُلَّ أنواع الثِّمار بلا استثناء

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن ثَمَرَاتٍ﴾ يجوز أن تكون استغراقيَّة[2] تفيد تأكيد نفي علمِ أيِّ أحدٍ بوقت خروج كلِّ أنواع الثِّمار مِن أكمامها[3]، ويمكن أنْ تكونَ بيانيَّة[4]، عُبِّر بها لبيان ما يخرُج، ولا يمكن لأحدٍ غيرِ الله تعالى أن يعلمَ وقتَهُ ولا نوعه، وهو الثَّمرات.

سرُّ تنكيرِ ﴿ثَمَرَاتٍ﴾ وجمعها:

اجتماعُ التَّنكير والجمع يؤكِّد عمومَ اللَّفظ وشمولَهُ كلَّ الأنواع

أوثرَ تنكيرُ المجرورِ: ﴿ثَمَرَاتٍ﴾ وجمعه؛ لِما يفيده التَّنكير والجمع من تأكيد عموم اللَّفظ وشموله كلَّ أنواع الثِّمار، الصَّغيرِ منها والكبيرِ، والقليلِ والكثيرِ، والمفرد والمتعدِّد، والصّالح والفاسد، والفواكه والحبوب وغيرها[5] ممّا يخرج مِنَ الأكمام.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 74.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.
(4) الطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 621.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.

التَّوجيهُ البلاغيُّ للقراءات الواردة في: ﴿ثَمَرَاتٍ﴾:

قَرَأَ أبو جَعفَرٍ، ونافِعٌ، وابنُ عامرٍ وحَفصٌ ﴿مِن ثَمَرَاتِ﴾ على الجَمْعِ، وقَرَأَ باقي العشرة بالإفرادِ[1]: ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾، وإذا كانت قراءةُ الجمع تدلُّ على كثرة الثِّمار وتنوُّعها؛ لتشملَ الصَّغير والكبير، والقليل والكثير، والصّالح والفاسد، والحبوب والثِّمار - كما سبق - فإنَّ قراءة الإفراد تشمل جنس الثَّمرةِ بكلِّ أنواعها وأحجامها على اختلاف الزَّمان والأوان أيضًا[2].

قـراءةُ الجمعِ تفيد الكثرةَ والتَّنوُّع، وقراءة الإفراد تشمل الجنسَ بكلِّ أنواعه

معنى ﴿مِّنْ﴾ في قوله: ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾:

﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ يمكن أن تكون ابتدائيَّةً[3]، والمعنى: يعلم خروج الثَّمرة ابتداءً مِن كِمِّها، ويجوز أن تكون بيانيَّة[4] عُبِّرَ بها لبيان ما تخرج منه الثَّمرات، وهو الأكمامُ، ولتأكيد نفي العلمِ بموعد خروجِ الثَّمرة من كِمِّها[5].

سرُّ إيثارِ لفظ الأكمام جمعًا مُعَرَّفًا بالإضافةِ:

عبَّر النَّظمُ عن المكان الَّذي تخرج منه الثَّمرات بقوله: ﴿أَكْمَامِهَا﴾، ومعناه: "كلُّ ما غَطَّى الثَّمارَ مِنَ الأوعية"[6]، وأوثِرَ التَّعبيرُ عنه بلفظ الجمع؛ للدَّلالة على إمكان تعدُّد الأكمام للثَّمرة الواحدة، فبعضُ الثِّمار يخرج مِن كِمٍّ واحد، وبعضُها يخرج من عدَّة أكمام، وفي إضافة الأكمام إلى ضمير الثَّمرات دلالةٌ على أنَّ كلَّ نوعٍ مِن أنواع الثِّمار له أكمامُهُ الخاصَّة، الَّتي لا يشتركُ فيها مع غيره، أو لا ينازع فيها غيرَهُ.

بعضُ الثِّمار يخرج من كِمٍّ واحدٍ، وبعضُها يخرج مِن عدَّة أكمام

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 130، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 314، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 17.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 17.
(3) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 576.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 74، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 17.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 6.
(6) ابن القيم، زاد المسير: 4/ 55، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.

سرُّ تقديم الرِّزق على الخلقِ:

عادةُ البيانِ القرآنيّ تقديمُ الأهمِّ على المُهمِّ، وما يَشْغَلُ النّاسَ على غيره

يُلحظ في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ تقديمُ العلم بما يتَّصل بالرزق على العلم بما يتَّصل بالخلق حملًا وولادةً؛ لأنَّه الأليق والأهمُّ[1]، ويمكن أن يكون الغرضُ الإعلامَ بإحاطة الله تعالى بأرزاق الناس وأرزاق أولادهم من قبل الحمل والولادة، ويجوز أن يكونَ الغرض دفعَ توهُّم سهولة الوقوف على موعد خروج الثَّمرات مِن أكمامها؛ نظرًا لممارسة النّاس زراعةَ الحبوبِ والثِّمار ورعايتَها ومتابعتَها، واطِّلاعِهم على مراحل نموِّها أكثر من اطِّلاعهم على مراحل الحمل والولادة، فقدَّم نفْيَ ما يُظَنُّ علمُهم به على نفي ما يقلُّ إحاطتُهم بأمره.

وجهُ العطف بالواو:

كلُّ الأمور الَّتي تقع في المستقبل مردُّ العلم بها إلى الله، لا إلى غيره

الواو في قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾؛ لعطف ما بعدها على جملة: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾، وأوثِرَ عطفُها بالواو الَّتي تفيد الاشتراكَ في الحُكم؛ للدَّلالة على أنَّ العلمَ بما يخصُّ حملَ الأنثى من النّاس والحيوان وغيرهما مردُّه كذلك إلى الله تعالى، لا إلى أحد غيره، فلا يستطيع أحدٌ من النّاس - مهما أوتي من النُّبوَّة أو العلم - أن يجزم بموعد حمل الأنثى، والَّتي تُلَقَّح، والتي لا تُلَقَّح[2]، ووجهُ العطف بينهما - بالإضافة إلى ما سبق - أنَّهما مِن الأمور الَّتي تقع في المستقبل[3]، والَّتي لا يستطيع أحدٌ التَّنبُّؤَ بها، شأنُهُما شأنُ السّاعة الَّتي لا يعلمُها إلّا اللهُ.

نكتةُ تكرار (ما):

تكرارُ النَّفي مع كلِّ مذكورٍ أقوى في التَّأكيد مِنْ نفي الجميع بحرفٍ واحدٍ

أعاد النَّظمُ التَّعبيرَ بحرف النَّفي: (ما) في قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ مع قربِ العهد به؛ للاهتمام بنفي كلِّ واحد من هذه الأمور

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 6.
(3) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 571.

المستقبَلة نفيًا مستقلًّا[1]، يتأكَّدُ به أنَّ مردَّ العلم بكلِّ واحدٍ منها على وجه الخصوص إلى الله تعالى، لا إلى غيرِهِ.

دلالةُ التَّعبير بالفعل: ﴿تَحْمِلُ﴾ مضارعًا:

استحضارُ الصّورة يدعم عدمَ العلم بموعد الحَمْلِ ونتيجته

عبَّر النَّظمُ عن فعل الحمل بصيغة المُضارع، فقال: ﴿تَحْمِلُ﴾؛ لِما يفيده التَّعبير بهِ مِن الدَّلالة على تجدُّد علمه سبحانه وإحاطته التّامَّة بكلِّ ما يتجدَّد حملُهُ في أرحام الإناث على اختلاف أنواعهن، سواء أكنَّ مِنَ البشر أم مِن غيرِ البشرِ، ولو قيل: (ما حملت كلُّ أنثى)؛ لفُهِمَ أنَّ ذلك العلم كان فيما مضى، ولا ينسحب على ما هو آتٍ، يُزاد على ذلك ما يفيدُهُ المضارع مِن استحضار صورةِ الرَّجل والمرأة، وهما في حالةٍ مِنَ القلق والتَّرقُّب ينتظران نتيجة التَّلقيح، ليعرفا هل تمَّ الحملُ أم لا؟ ممّا يدعمُ جهل النّاس بموعدهِ وحقيقتهِ، ويُقَوّي ردَّ العلمِ به إلى الله تعالى وحدَهُ.

معنى ﴿مِنْ﴾:

﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾ حرفُ جرٍّ يفيد استغراقَ النَّفي، وتأكيد شمول المعنى انتفاء العلم بحمل كلِّ الإناث عن كلِّ أحدٍ غيرِ الله ﷻ.

سرُّ إيثار لفظ الأنثى نكرة:

كلُّ الإناثِ في عدم العلم بحملهن سواءٌ

أوثِرَ تنكيرُ الاسم المجرور في قوله: ﴿مِنْ أُنثَىٰ﴾؛ لِما يفيدُهُ التَّنكير مِن عمومِ الاسم الواقع في سياق النَّفي وشموله كلَّ أنثى أيًّا كانت وأين كانت، وأنَّه لا يمكن لأحد - مهما وصلت إمكاناتُهُ، وما كان لديه من أجهزة - أن يجزمَ بحصول الحمل أو عدم حصولهِ، أو يتحكَّم في كون الجنين كاملًا أو ناقصًا، أو ذكرًا أو أنثى، فالله تعالى وحده هو الَّذي ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ﴾ [الشورى: 49 - 50].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.

وجهُ العطف بالواو:

جاءت جملة: ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ معطوفةً على ما قبلَها بالواو الَّتي تفيد الاشتراك في الحكم؛ لِما سبق بيانُهُ من أنَّ جميعَ ما ذكرَتْهُ الآيةُ هو مِنَ الأمور المستقبَلَةِ الَّتي لا يعلمها إلّا اللّه تعالى، فلا يمكن لأحد غيرِهِ أن يحدِّد بدقَّة ميعاد وضع الأنثى حملَها؛ لأنَّ ذلك يختلف من واحدة لأخرى، أمّا ما يقولُهُ الأطبّاء في عصرنا؛ فما هو إلّا مِن باب الحدس والتَّخمين والأخذ بالنَّتائج العلميَّة، ومع ذلك يحصل الوضعُ والولادةُ كثيرًا في أوقاتٍ غيرِ مُتَوقَّعة، ولم تكن في الحسبان.

الوضعُ والولادةُ أيضًا من الأمور المستقبلة الَّتي لا يعلمها إلّا اللهُ

نكتةُ العدولِ إلى النَّفي بـ (لا):

عدل النَّظمُ عن النَّفي بـ (ما) إلى النَّفي بـ (لا) في قوله: ﴿وَلَا تَضَعُ﴾؛ "لأنَّ الوضع ليس كالحمل يقع في لحظةٍ، بل يطول زمان انتظارِهِ"[1]، فكان تغييرُ حرف النَّفي إلماحًا إلى ذلك ودلالةً عليه، ويرى ابن عاشور لذلك العدول فائدةً نحويَّةً؛ إذ يقول: "وعُدِلَ عَن إعادَةِ حَرْفِ (ما) مَرَّةً أُخْرَى؛ لِلتَّفادي مِن ذِكْرِ حَرْفٍ واحِدٍ ثَلاثَ مَرّاتٍ؛ لِأنَّ تَساوِيَ هَذِهِ المَنْفِيّاتِ الثَّلاثَةِ في عِلْمِ اللّه تَعالَى، وفي كَوْنِ أزْمانِ حُصولِها سَواءٌ بِالنِّسبَةِ لِلحالِ ولِلاستِقبالِ، يَسُدُّ عَلَينا بابَ ادِّعاءِ الجُمهورِ الفَرقَ بَينَ (ما) و (لا) في تَخليصِ المُضارِعِ لِزَمانِ الحالِ مَعَ حَرْفِ (ما)، وتَخليصِهِ لِلاستِقبالِ مَعَ حَرفِ (لا)"[2]، ويُفهم من كلامِهِ – رحمه اللّه – أنَّ النَّفي بالحرفين المذكورين يفيد امتداد علمِ اللّه تعالى وحدَهُ بهذه الأمور إلى قيام السّاعة.

الـوضـعُ ليس كالحملِ يحدثُ في لـحـظـةٍ، بل يـطـولُ زمـانُ انتظارِهِ

دلالةُ التَّعبير بفعل الوضع مضارعًا:

عبَّر البيانُ عن فعلِ الوضع بصيغة المُضارع، فقال: ﴿تَضَعُ﴾؛ لما يفيده التَّعبيرُ به من الدَّلالة على تجدُّدِ علمِ اللّه سبحانه وإحاطته

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 6.

التّامَّة بكلِّ ما يتجدَّد وضعه مِن أرحام الإناث على اختلاف أنواعهن، سواءٌ أكنَّ مِنَ البشر أم مِن غير البشرِ، ولو قيل: (وما وضعت)؛ لفُهِمَ أنَّ ذلك العلم كان فيما مضى، ولا ينسحب على ما هو آتٍ، يُزاد على ذلك ما يفيده التَّعبيرُ بالمضارع من استحضار صورة المرأة، وهي في حالة القلق والتَّرقُّب؛ بسبب آلام الوضع والمخاض، لتعرف ويعرفَ المحيطون بها هل سيكون جنينُها حيًّا أو ميِّتًا؟ خديجًا أو تامًّا؟ ناقصًا أو كاملًا؟ ذكرًا أو أنثى؟ حسنًا أو قبيحًا؟ وغير ذلك، ممّا يؤكِّد ردَّ العلم بأمور الوضع أيضًا إلى اللّه وحده.

استحضار صورة الوضع يقوّي ردَّ العِلم بأحوالهِ أيضًا إلى الله تعالى

بلاغةُ القصر بطريق النَّفي والاستثناء:

في قوله تعالى: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ قصرُ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا، أو إضافيًّا بغرض القلب، تمَّ فيه نفيُ العلم بموعد خروج الثَّمرات من أكمامها، ونفي الإحاطة بحمل الإناث ووضعها عن أيِّ أحد نفيًا قاطعًا، ثمَّ إثبات كون ذلك بعلم اللّه تعالى، ليتأكَّد بهذه الطريقة أنَّ علمَ هذين الأمرين وغيرهما مِنَ الأمور المستقبلة مقصورٌ على اللّه تعالى لا يتعدّاه إلى أحدٍ آخر، وأوثرَ النَّفي والاستثناء طريقًا للقصر؛ لأنَّه يمتاز عن غيره مِن الطُّرق بكونهِ يُستعمل عندما يكون الكلام موجَّهًا إلى مُخاطَبٍ منكرٍ للأمر أو شاكٍّ فيه، فيستلزم ذلك تأكيد المعنى من خلال النَّفي أوَّلًا والاستثناء ثانيًا؛ تحقيقًا للغرض المنصوب له البيان هنا، وهو تأكيدُ مردِّ علم السّاعة إلى اللّه تعالى، وأنَّ الأولى مِنَ السُّؤال عن موعدها الاستعدادُ لها بالإيمان وعمل الصالحات.

تأكيدُ علمِ الله تعالى بالأمور المستقبلة بعد نفيه عن غيره نفيًا قاطعًا

مزيَّةُ التَّعبير بـ ﴿إِلَّا﴾:

التَّعبيرُ بـ ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ يمنح الأسلوب مزيَّةَ الإثارة والتَّشويق إلى الجار والمجرور الَّذي يأتي بعدها، والَّذي يُبَيِّنُ المرجعَ الذي يُرَدُّ إليه موعدُ خروج الثَّمرات مِن أكمامها، ويردُّ

إليه أيضًا كلُّ ما يتعلَّق بها، والأمر نفسُهُ فيما يتعلَّق بحمل الأنثى ووضعها، فإذا ورد قولُهُ: ﴿بِعِلۡمِهِۦۚ﴾؛ ثبت في النُّفوس، وتأكَّد لديها أنَّه لا علمَ لأحد غير الله تعالى بهذين الأمرين، وكلِّ ما هو على شاكلتهما؛ لأنَّ المعنى إذا أُلقي على سبيل التَّشويق؛ تطلَّعت النَّفس إلى معرفته على سبيل التَّصريح، فتتوجَّه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا أُلقي تمكَّن فيها فضل تمكُّن، وكان شعورُها به أتمَّ[1].

التَّشويقُ إلى معرفة مرجعِ العلم بالأمور المستقبلة ليَثْبُتَ في نفوس المتلقّين

معنى الباء في ﴿بِعِلۡمِهِۦۚ﴾:

الباءُ في قوله: ﴿بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ حرف جرٍّ يفيد الملابسة[2]، والمعنى: لا تضع حملًا حيًّا أو ميِّتًا إلّا حال كونِهِ متلبِّسًا بعلم الله تعالى وحدَهُ، ومن ادَّعى علمًا به؛ فليخبر بأنَّ ثمرة الحديقة الفلانيَّة والبستان الفلانيِّ والبلد الفلانيِّ تخرج في الوقت الفلانيِّ، أو لا تُخرج العام شيئًا أصلًا، والمرأة الفلانيَّة تحمل في الوقت الفلانيِّ، وتضع في وقت كذا، أو لا تحمل العام شيئًا، ومِنَ المعلوم أنَّه لا يحيط بهذا علمًا إلّا الله سبحانه[3].

سرُّ إيثارِ لفظ العلم دون غيرِهِ:

آثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بمفردة العلم الموضوع لإدراك حقائق الأشياء[4] في قوله: ﴿بِعِلۡمِهِۦۚ﴾ دون (مشيئته، أو إذنه، أو أمره)؛ للدَّلالة على التَّمكُّن المفضي إلى أن يكونَ قيامُ السّاعة، وخروج الثَّمرات من أكمامِها، وحملُ الأنثى ووضعها بأمر الله تعالى وإذنه ومشيئته، فالعِلمُ مِن الأسباب المهيِّئة لذلك، ومَن حازه؛ حازَ المشيئة والإذن والأمر، وليس العكس.

مَنْ حاز العِلمَ؛ حاز المشيئةَ والإذنَ والأمرَ، وليس العكس

(1) القزويني، الإيضاح: 3/ 196.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 6.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 213.
(4) الراغب، مفردات القرآن: (علم).

توجيهُ العطف بالواو:

إثباتُ وقوعِ السّاعة بذِكر بعض ما يلقاه الكافرون في يومها

الواو في قوله: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ "عطفٌ على الجملة قبلها، فإنَّه لمّا تضمَّن قوله: ﴿*إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِۚ﴾ إبطالَ شبهتِهم بأنَّ عدم بيان وقتها يدلُّ على انتفاء حصولِها، وأتبع ذلك بنظائر لوقت السّاعة ممّا هو جارٍ في الدُّنيا دومًا؛ عاد الكلامُ إلى شأن السّاعة على وجه الإنذار مقتضيًا إثبات وقوع السّاعة بذِكر بعض ما يلقونه في يومها"[1].

بلاغةُ التَّعبير بلفظ (يَوْمَ):

التَّذكيرُ بيوم القيامة يحمل النّاسَ على تقوى الله وتلقّي أوامِره بالسَّمع والطّاعة

قولُهُ: (يَوْمَ) ظرفٌ متعلِّقٌ بمحذوف، تقديرُهُ: اذكر يوم، فهو مفعول به، وفي البيان به دلالةٌ على أنَّ التَّذكير بذلك اليوم الهائل ممّا يضطرُّهم إلى تقوى الله ﷻ، وتلقّي أمرِه بسمع الإجابة والطّاعة، ويمكن إعرابُهُ ظرفًا لمضمر قد حُذِفَ؛ للدَّلالة على ضيق العبارة عن شرحه وبيانه؛ لكمال فظاعةِ ما يقع فيه من الطّامَّةِ التّامَّةِ والدَّواهي العامَّة، كأنَّه قيل: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ يكونُ من الأحوالِ والأهوال ما لا يفي ببيانِه نطاقُ المقال[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾:

نداءُ المشركين يومَ القيامةِ كنايةٌ عن الخطاب العلنيّ أمام النّاس أجمعين

قوله: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ جملةٌ في محلِّ جرٍّ بالإضافة إلى (يَوْمَ)، وهي تتكوَّن مِن فِعلِ النِّداء، وفاعله الضَّمير المرفوع العائد إلى ﴿رَبُّكَ﴾ [فصلت: 46] في قوله: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ [فصلت: 46]، وفيها عبَّر النَّظم بالفعل: ﴿يُنَادِيهِمْ﴾؛ للكناية عن أنَّ اللّهَ سبحانَهُ سيُخاطب المشركين يوم القيامة مخاطبةً علنيَّة[3] أمام النّاس، يطالبهم فيها أن يأتوا بشركائِهم ليشفعوا لهم، وينقذوهم مِن عذابِ هذا اليوم.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 7.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 93.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 7.

دلالةُ التَّعبير بفعل النِّداء مضارعًا:

يومُ القيامةِ يجتمعُ على المشركين نوعان مِنَ الألم، أحدُهما حسّيٌّ، والآخرُ نفسيٌّ

أوثِرَ التَّعبيرُ بفعل النِّداء مضارعًا؛ لما يفيدُهُ مِن استحضارِ صورة المشركين في ذلك اليوم الشَّديد الهائل، وقد ناداهم الله تعالى، وسألهم مُتَهَكِّمًا موبِّخًا عن الشُّركاء الَّذين اتَّخذوهم مِن دونه، فيجتمع عليهم بذلك نوعان مِنَ الألم: أحدهما حسّيٌّ، ويتمثَّل في أهوال يوم القيامة وشدائدِه، والآخر نفسيٌّ، ويتمثَّل في سخريَّة الله منهم، وتقريعه لهم، ومطالبتهم على الملأِ بأن يأتوا بالشُّركاء الَّذين اتَّخذوهم مِن دونهِ؛ لينقذوهم مِن عذابِ ذلك اليوم وعقابه.

مرجعُ الضَّمير المنصوب في ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ ودلالته:

التَّعبيرُ عن المشركين بضمير الغائب فيه تحقيرٌ لهم وازدراءٌ لشأنهم

الضَّميرُ المنصوب: (هُمْ) في ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ "عامٌّ في كُلِّ مَن عَبَدَ غَيرَ الله، فيَدخُلُ فيهِ عُبّادُ الأوثانِ"[1] دخولًا برهانيًّا، وفي التَّعبير عنهم بضمير الغائب دونَ الاسم الظّاهر تحقيرٌ لهم، وازدراء لشأنهم، وإلماحٌ إلى أنَّه لا حضورَ لهم، ولا اعتدادَ بوجودِهم.

الغرضُ مِن الاستفهام بـ ﴿أَيْنَ﴾:

تنبيهُ المشركين إلى أخطائهم، وإثارتُهم للتَّراجع عنها

﴿أَيْنَ﴾ اسم استفهام، أوثِرَ التَّعبيرُ بهِ للإنكار على المشركين وتوبيخهم على اتِّخاذهم آلهةً من دون الله تعالى، ولتعجيزِهم عن الإتيان بهم؛ ليخلِّصوهم مِن هول يوم القيامة وعقابه، ويزادُ على ذلك ما يمتاز به أسلوبُ الاستفهام من تنبيهِ المشركين وإثارتهم إلى ضرورة الاستعداد للرَّدِّ على هذا السُّؤال واستحضار الإجابة عنه، ما يدفعهم إلى الإقلاع عن الشِّرك قبل أن يقفوا هذا الموقف؛ لأنَّه إذا كان الاستفهامُ "في مثل هذا يُفسَّر بالإنكار؛ فإنَّ الَّذي هو مَحْضُ المعنى: أنَّه ليَتَنَبَّه السّامعُ حتى يَرجعَ إلى نفسِهِ، فيخجلَ، ويرتدعَ، ويعيا بالجواب"[2].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 315.

(2) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 119.

توجيهُ جمع شركاء:

جميعُ الشُّركاءِ عاجزون عن فعل أيِّ شيءٍ للمشركين يومَ القيامة

التَّعبيرُ عن المُستَفهَم عنه بلفظ الجمع في قوله: ﴿شُرَكَآءِى﴾ فيه دلالةٌ على أنَّ الكفّار كانوا يشركون باللّه تعالى آلهةً كثيرة ومتعدِّدة، ولا يكتفون بإلهٍ واحدٍ، ما يعني: أنَّ غايتَهم كانت الإشراكَ باللّه تعالى من غير قصدٍ إلى إلهٍ بعينهِ لمزايا فيه، أو لسماتٍ يختلف بها عنِ اللّهِ جلَّ في علاهُ، كما أنَّ التَّعبيرَ بصيغة الجمع في سياق الاستفهامِ الإنكاريِّ يدلُّ على عجز جميع الشُّركاء عن فعل أيِّ شيءٍ للمشركين يومَ القيامة.

نكتةُ الإضافةِ إلى ياء المتكلِّم:

أضافَ المولى سبحانه المُستَفهَم عنه إلى ضميرهِ في قوله: ﴿شُرَكَآءِى﴾؛ جريًا على زعم الكفّار بأنَّ آلهتَهم شركاءُ للّه، وفي الإضافة تهكُّمٌ وتقريعٌ وتنديمٌ[1] لهم، على جعلهم ما لا يستحقُّ شركاءَ للّه تعالى، والمعنى: أين "الذين زعمتم أنَّهم يشفعون لكم في هذا اليوم، ويحمونكم مِن العقاب واللَّوم؟"[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل القول ماضيًا مسندًا إلى ضمير الجمع:

سيندمُ المشركونَ على شركِهم باللّه يوم لا ينفع النَّدم

أخبر النَّظمُ عمّا سيجيبُ به المشركون عنِ السُّؤال بالفعل: ﴿قَالُوٓاْ﴾ الموضوع لإبراز ما يُتَصَوَّر في النَّفس[3]؛ للدَّلالة على أنَّهم - يوم القيامة - عرفوا حقيقةَ هذهِ الآلهة، وندموا على اتِّخاذها شركاء للّه غاية النَّدم، ما يعني: أنَّ قولَهم سيكون ممزوجًا بالحسرة والألم حين لا ينفع النَّدم، وعبَّر به ماضيًا مع أنَّ القول سيحدث مستقبلًا؛ للدَّلالة على أنَّه حاصلٌ - لا محالة - وأنَّ على المتلقّي أنْ يعدَّه كالخبر الذي وقع، وحصل، وفي إسناده إلى ضمير الجمع إلماحٌ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 204، والبقاعي، نظم الدرر: 17/ 214.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 214.
(3) الراغب، مفردات القرآن: (قول).

إلى أنَّ المشركين كلَّهم سيسارعون إلى قول ذلك في آنٍ واحدٍ، ولن يتأخَّرَ أحدٌ منهم، أو يُكابرَ في الاعتراف به.

نكتةُ التَّعبيرِ بقوله: ﴿ءَاذَنَّـٰكَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

اعترافٌ في السِّرِّ والعلن، ممزوجٌ بالحسرة والخجل

قولُهُ: ﴿ءَاذَنَّـٰكَ﴾ جملةٌ مكوَّنة من فعل الإذن، والفاعل (نا) العائد إلى المشركين، ومفعوله (كَ) المُخاطَب به ربُّ العزَّة سبحانه، وهي في محلِّ نصب مقول القول، أوثِرَ التَّعبيرُ فيها بفعل الإذن، الَّذي يعني: الإعلام والإخبار - كما سبق بيانه - للدَّلالة على أنَّ قصدَهم: "أعلمناك سابقًا بألسنة أحوالِنا، والآن بألسنة مقالِنا، وفي كلتا الحالتين أنت سامعٌ لذلك؛ لأنَّك سامعٌ لكلِّ ما يُمكن أن يُسمع، وإن لم يسمَعْهُ غيرُك"[1]، "وصيغَةُ الماضي في: ﴿ءَاذَنَّـٰكَ﴾ إنشاءٌ، فهو بمَعنى الحالِ مِثلَ: بِعْتُ، وطَلَّقْتُ، أي: نَأْذَنُكَ، ونُقِرُّ بِأنَّهُ ما مِنّا مِن شَهيدٍ"[2]، أي: إنَّ التَّعبيرَ بالماضي فيه دلالةٌ على تحقُّق قولهم: ﴿ءَاذَنَّـٰكَ﴾ ممزوجًا بالحسرةِ والنَّدم من غير شكٍّ أو ريبٍ.

فائدةُ الإعادةِ توبيخُ الجاني، وتمهيدٌ لنفي الشَّهادة

ولمّا كان قولُهُ: ﴿ءَاذَنَّـٰكَ﴾ إخبارًا بإيذان كان منهم، فهذا يقتضي أنَّه تعالى قد سأل عنهم بمثل هذا السُّؤال قبل ذلك، وأنَّهم أجابوه بمثل هذا الجواب، ثمَّ أعادَهُ، فما فائدةُ الإعادة؟ والجواب في وجوه: **أحدها:** أنَّه مِن عادة الموبِّخ أن يعيدَ كلمة التَّوبيخ تشديدًا على الجاني وتقبيحًا لجنايته، **وثانيها:** أنَّ قولَهم لا يعني أنَّه قد سبق منهم الإيذانُ بمثله، لكن هو إيذانٌ بلسان الحال مِن مضمرات البال، **وثالثها:** أنَّه توطئةٌ للإخبار، وتمهيد لقوله: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾[3].

وجهُ النَّفي بـ ﴿مَا﴾:

﴿مَا﴾ في جملة: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ هي النّافيةُ العاملةُ عمل (ليس) أوثِرَ النَّفي بها؛ لأنَّ مِن خصائصِها نفيَ الجمل الاسميَّة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 215.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 8.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 622.

والفعليَّة، وهي آكدُ في النَّفي مِن (ليس)، وأوسع استعمالًا منها أيضًا[1]، والنَّفي بـ ﴿مَا﴾ أنسبُ هنا؛ لأنَّها تفيد - بمعناها ومبناها المختوم بألف المدِّ - نفْيَ كونِهم شهداءَ على وجود شركاء للّه تعالى نفيًا قاطعًا لا حدودَ له.

المشركون ينفون كونَ أحدٍ منهم شهيدًا على وجود شركاء لله نفيًا قاطعًا

فائدةُ التَّعبير بشبه الجملة: ﴿مِنَّا﴾:

قولُهُ: ﴿مِنَّا﴾ جارٌّ ومجرورٌ في محلِّ رفع خبر مُقَدَّم، والضَّمير المجرور فيه يعود إلى المشركين، وفي التَّعبير بهما دلالةٌ على أنَّهم لا يشهدون أنَّ للّه تعالى شريكًا، والمعنى: "لَيسَ أَحَدٌ مِنّا يَشهَدُ بِأَنَّ لَكَ شَريكًا، فالمَقصودُ: أَنَّهُم في ذَلِكَ اليَوم يَتَبَرَّؤونَ مِن إثباتِ الشَّريكِ للّه تَعالَى"[2]، ويمكن أن يكونَ الغرضُ مِنَ التَّعبير بالجار والمجرور نفْيَ كونِهم يُشاهدون (أي: يبصرون) الشُّركاءَ يوم القيامة، والمعنى: "ما مِنّا مِن أَحَدٍ يُشاهِدُهُم؛ لأَنَّهُم ضَلّوا عَنهُم، وضَلَّت عَنهُم آلِهَتُهُم، لا يُبصِرونَها في ساعَةِ التَّوبيخِ"[3]، وقيل: إنَّ الضَّمير المجرور في ﴿مِنَّا﴾ يعود إلى الأصنام، ما يعني: "أَنَّ اللّه يُحْيِيها، ثُمَّ إنَّها تَقولُ: ما مِنّا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ بِصِحَّةِ ما أَضافوا إلَيْنا مِنَ الشَّرِكَةِ، وعلى هَذا التَّقْديرِ فالمَعْنَى: أَنَّها لا تَنفَعُهُم، فَكَأَنَّهُم ضَلّوا عَنهُم"[4].

المشركون والأصنامُ سينكرون الشِّركَ باللّه يوم القيامة

سرُّ تقديم شبه الجملة ﴿مِنَّا﴾:

يحكي النَّظمُ تقديمَ الجار والمجرور: ﴿مِنَّا﴾ على المبتدأ المجرور لفظًا في ﴿مِن شَهِيدٍ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ اهتمامَ يوم القيامة منصبٌّ على نفي وجود أحدٍ منهم يشهد أنَّ للّه شركاءَ.

معنى ﴿مِن﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن شَهِيدٍ﴾ حرفُ جرٍّ، عبَّر به المشركون

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.
(2) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 55، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 572.
(3) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 55، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 572.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 4/ 55، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 27/ 572.

بقصد تأكيد نفي وجود شهيد مِن بينهم[1]؛ لدلالتِها على استغراق كلِّ أحدٍ منهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بكلمة: ﴿شَهِيدٍ﴾:

كلمة ﴿شَهِيدٍ﴾ في قول المشركين المحكي: ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ "يَجوزُ أن تَكونَ بِمَعنَى المشاهِدِ، أي: المُبْصِرُ، والمعنى: ما أَحَدٌ مِنّا يَرَى الَّذينَ كُنّا نَدْعوهُم شُرَكاءَكَ الآنَ، أي: لا نَرَى واحِدًا مِنَ الأصنامِ الَّتي كُنّا نَعْبُدُها ... ويَجوزُ أنْ يَكونَ الشَّهيدُ بِمَعنَى الشّاهِدِ، أي: ما مِنّا أَحَدٌ يَشهَدُ أنَّهُم شُرَكاؤُكَ، فيَكونُ ذَلِكَ اعترافًا بِكَذِبِهِم فيما مَضَى"[2]، ولا مانع من أنَّهم يوم القيامة سينفون الشَّهادة والمُشاهَدَة.

سينفي المشركون يوم القيامة مشاهدتهم الشُّركاء وشهادتهم لهم

نكتةُ التَّعبير بصيغة المبالغة:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن شهادة الكافرين الَّتي أكَّدوا نفي حصولها منهم، بصيغة المبالغة في قولهم: ﴿شَهِيدٍ﴾ الموضوع للعلم ببواطن الأمور وظواهرها[3]؛ لإثبات جهلِهم بحقيقة هذه المعبوداتِ، وأنَّها لا تصلح أن تكونَ شريكة للّه؛ لأنَّه لا يوجد منهم "مطَّلِعٌ على ما يريد من غير خفاء، بحيثُ لا يغيب عن علمِهِ شيءٌ، فيخبر بما يخبر به على سبيل القطعِ والشَّهادة، فآلَ الأمرُ إلى أنَّ المعنى: لا نعلم، أي: ما كنّا نسمّيهم شركاء؛ لأنَّه ما مِنّا مَن هو محيط العلم"[4].

سيدَّعي المشركون يوم القيامة جهلَهم بحقيقة الآلهة الَّتي كانوا يعبدونها من دون الله

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الرَّدّ والإرجاع والعَوْد والأوْب:

الرَّدُّ: صرفُ الشَّيء بذاته، أو بحالة من أحواله، يقال: رَدَدْتُهُ فارتَدَّ[5]، والإرجاعُ: الإعادةُ إلى ما كان منه البدءُ، أو تقديرُ البَدْءِ،

لم يعرف أحدٌ موعدَ السّاعة في الماضي، ولن يحيط به أحدٌ في الحاضر أو المستقبل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 215.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 25/ 8.
(3) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 25/ 1.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 17/ 215.
(5) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 59، والراغب، مفردات القرآن: (رد).

يقال: رَجَعَهُ رَجْعًا وأرجعه: أعاده[1]، والعَوْدُ: هو تَثْنِيَةُ الأمْرِ عَوْدًا بَعْدَ بَدْءٍ[2]، أو: الرُّجوع إلى الشَّيء بعد الانصراف عنه، إمّا انصرافًا بالذّات، أو بالقول والعزيمة[3]، والأوْبُ: رجوعُ الشَّيء إلى مستقرِّه، كما يؤوب النَّحل[4]، ولمّا كان الحديث عن موعد السّاعة وميقاتها؛ ناسب التَّعبير بفعل (الرَّدِّ) دون غيرهِ من هذه المرادفات؛ لدلالته على الصَّرف التّامِّ، وهو ما يمتاز به عن المفردات المذكورة، ما يعني: أنَّ العلم بموعد السّاعة وميقاتها مصروف إلى الله تعالى أوَّلًا وأخيرًا، ولم يعرفْ أحدٌ به في الماضي، ولن يحيط به أحدٌ في الحاضر أو المستقبل.

الوضع والولادة:

آلامُ الوضعِ ومعاناتُهُ تثير المرأةَ والمحيطين بها إلى معرفة موعدِه بدقَّة

الوضعُ: يَدُلُّ على الخَفْضِ لِلشَّيءِ وحَطِّهِ، يقال: وضَعْتُهُ بِالأرْضِ وضْعًا، ووضَعَتِ المَرأةُ ولَدَها[5]، والولادةُ تُطلق على: وضع الوالدة ولدَها[6]، ولأنَّ التَّعبير جاء في سياق بيان الأمور المستقبلة التي لا يعلمُها إلّا الله؛ كان التَّعبير بمفردة (الوضع) أنسبَ؛ لأنَّه يشير إلى ترقُّب الأمِّ والمحيطين بها نزول الجنين، ورغبتهم في معرفة موعده المحدَّد، حتّى تُسَلّيَ المرأةُ نفسَها بقربه حين تشتدُّ عليها الآلام، وتعاودها الأوجاع، وتسيطر عليها حالةٌ نفسيَّةٌ تجعلُها راغبةً في وضعه بأيِّ شكل، ومع ذلك لا يستطيع أحدٌ أن يخبرَها بالوقت الدَّقيق لخروج الجنين من بطنها تمامًا، كما لا يستطيع أحدٌ معرفةَ الوقت الدَّقيق لوقوعِ السّاعة وقيامِها.

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 39.
(2) الفراهيدي، العين: (عود).
(3) الراغب، مفردات القرآن: (عود).
(4) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي: (أوب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وضع).
(6) الفيومي، المصباح المنير: (ولد).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"